

أيّ مستقبل لإسلامي تونس المستقلين عن النهضة؟



يروج في كواليس السياسة ومجالسها في تونس أن الإسلاميين المستقلين من النهضة بعد الانقلاب والمعروفين بقائمة المئة يسعون إلى تأليف حزبي، في أفق ما بعد الانقلاب، وقد وصف البروفيسور أبو يعرب المرزوقي عملهم بأنه نار في تبن يمكنها أن تلتهب بسرعة فتوهم بنار كبيرة، لكنها سرعان ما ستنتطفئ لأنها تفتقد إلى قوة دفع ذاتي (خشب صلب يحفظ الجذوات المستعرة) وحكم على مصيرها بالفشل قبل أن تظهر للضوء ويحكم عليها الناس حكماً موضوعياً.

هذه الورقة لا تنوي مصادرة النوايا وبناء حكم مسبق على فعل مماثل، لكنها ستبني على السوابق التاريخية لعمليات خروج من حزب النهضة (الاتجاه الإسلامي) ومصيرها، فمنذ ظهرت النهضة للوجود كتيار إسلامي سياسي في السبعينيات إلى آخر خروج منها وهو استقالة قائمة المئة، وثقة سؤال ملح مطروح: لماذا لم يفلح أي خروج فردي أو جماعي في بناء شيء سياسي يمكن النظر إليه ككيان مختلف ومستقل وفعال، أي كرأس ثانية أو ثالثة للعمل السياسي الإسلامي؟

جماعة اليسار الإسلامي أو (15-21)

هم جماعة من رموز التيار الإسلامي المؤسس، تمايزت عن حركة الاتجاه الإسلامي منذ آخر السبعينيات، ففي حمى جدال داخل الحركة الناشئة كانوا يناقشون العلاقة مع التنظيم الدولي للإخوان المسلمين، لكنهم خاضوا مع بقية المؤسسين وفي مقدمتهم راشد الغنوشي نقاشاً فكرياً أعمق من النقاش التنظيمي، وانتهوا إلى أن الطرح الإسلامي (الإخواني) قد تجاوز الزمن ولا بد من تأسيس جديد على يسار الإخوان/الجماعة الإسلامية/الاتجاه الإسلامي التي كانت تصطبغ بلوثة وهابية محافظة ورجعية، ولم يروا غضاضة في وصفهم باليسار الإسلامي، بل حملوا النعت بفخر فكري وتجمعوا حول مجلة أسموها 15-21 تفاعلاً بميلاد فكر إسلامي جديد في القرن 15 الهجري والقرن 21 ميلادياً، معركة العقل مع النقل

والتفاعل مع مكتسبات العلوم الإنسانية ومناهجها في مجادلة الفكر الديني عامة والمرجعيات الإسلامية خاصة لجهة نقد الإسلام التاريخي ونفض القدسية المدعاة عنه.

صرح مورو بخلافه العميق مع خطة الحركة في الاشتباك العنيف مع نظام بن علي، لكن لم يُسمع له فاستقل وابتعد وحافظ على مركزه الاجتماعي كمحام ناجح.

أثرت هذه النقاشات حتى داخل الإسلاميين المحافظين وقد كان لتزامنها مع الثورة الإيرانية وفكر علي شريعتي وأطروحات حسن حنفي رحمه الله أثر بالغ في تحريك شباب الاتجاه الإسلامي فكريًا وجره إلى نقاشات عميقة، لكنها لم تفلح في بناء تنظيم سياسي مستقل قابل للبقاء خاصة أن "شبهة الإسلام" لم تجعل نظام بورقيبة يقبل بهم ووصموا بأنهم قناع آخر للاتجاه الإسلامي رغم أنهم لم يؤذوا في أجسادهم كما جرى لجماعة الاتجاه الإسلامي إلا قليلًا.

هذه الجماعة تفككت عمليًا وبقي رموزها يحسبون على الإسلاميين المستقلين (الأستاذ حميدة النيفر خاصة) عن النهضة، لكن لأنهم لم يشاركوا في معارك الاستئصال السياسي للنهضة زمن بن علي فإن الساحة الفكرية والسياسية لم ترحب بهم، ولا يزال اليسار الاستئصالي ينعتهم بالخوانجية.

كانت هذه أولى تجارب الخروج التي فشلت تنظيميًا، ويمكن القول إن كثيرًا من رموز النهضة قد استوعبوا طرحهم الفكري واستولوا عليه، ونجد بعض أثرهم في جمل راشد الغنوشي متناثرة غير مؤلفة في سياق.

محاولات التمايز عن النهضة بعد الثورة

طيلة حقبة الثمانينيات وفي أثناء محرقة بن علي ابتعد أفراد كثير عن الحركة المطاردة، لأسباب يعسر تجميعها في سياق واحد، فكثير جبن وهادن أو اختفى في تعاون فني خارج الحدود، وكثير نفر من ميل الحركة إلى مواجهة النظام مباشرة وفي مقدمة هؤلاء المؤسس عبد الفتاح مورو.

صرح مورو بخلافه العميق مع خطة الحركة في الاشتباك العنيف مع نظام بن علي، لكن لم يُسمع له فاستقل وابتعد وحافظ على مركزه الاجتماعي كمحام ناجح.

لم يصر شخصًا غير إسلامي، لكنه لم يسع إلى تأسيس سياسي مختلف، فبقي فردًا يحذره النظام ولا يراوده (في مكانة اعتبارية ولم ينج تمامًا من الأذى في رزقه وبيته، لكنه لم يحاكم ولم يسجن)، حتى ظهر بعد الثورة بجانب الغنوشي في اجتماع باردو الشهير، وتبين أن الغنوشي يعمل على إعادة إدماجه في الحركة فلم يبد معارضة، لكن جمهور الحزب ظل يصمه بالخيانة ولم يرحب به فتقدم إلى انتخابات 2011 بقائمة الأمانة (مستقلة) مع شخصيات أخرى كان بعضها ينشط في شباب الحركة في الجامعة (صلب النقابة الطلابية القريبة من الحركة) لكن القائمة سقطت في كل الدوائر التي ترشحت فيها، فترسخت قناعة أن لا وجود لإسلامي خارج حزب النهضة.

كل محاولات التأسيس من خارج النهضة اتجهت إلى الاستقطاب من داخل جمهور النهضة ولم تعمل على استقطاب جمهور آخر من خارجها

دخل مورو البرلمان على قوائم النهضة في 2014 وانتخب نائبًا لرئيس البرلمان فأعاد تقديم مواهبه في القيادة والخطابة فرشحه الحزب للرئاسة سنة 2019 فحل ثالثًا وقد صدر عن الحزب ما يفيد أن 40% من النهضويين لم يصوتوا له وقيل في ذلك الكثير، منه أن قواعد للحزب لم تغفر له موقفه في المجزرة ومنه أن الغنوشي (غيره من مقبولية مورو) تخلص منه بطريقته الكيدية ليحفظ لنفسه موقعًا في الرئاسة الثلاثية، لكن النتيجة واحدة لم يمكن لإسلامي بناء فعل سياسي من خارج الحزب.

إلى جانب مورو حاول آخرون، فبنى محمد القوماني (يسار إسلامي) حزب العدالة والتنمية بعد الثورة

لكن انتهى إلى حل الحزب قانونيًا ثم التحق بالنهضة عضوًا بالشوري ثم نائبًا عن جهة باجة/شمال، كما بني رياض الشعبي حزب البناء بعد 2014 بنهضويين مستقلين من الحزب لكنه انتهى أيضًا إلى حل الحزب وعاد إلى النهضة مستشارًا لدى الغنوشي.

أما بقية الشخصيات التي ابتعدت عن الحزب فلم يعرف عنها أنها سعت إلى ظهور سياسي خاص فاخفت بصفتها وأشخاصها وبعضها يحاكم بتهم الفساد مثل السيد مهدي بن غربية (من شباب الاتجاه في الثمانينات).

جماعة الائتلاف يستقربون فلول النهضة

ظهر الائتلاف في انتخابات 2019 كمجموعات من الشباب المحافظ عمومًا، يستعيدون ما تخلت عنه النهضة من مفردات الخطاب الديني المحافظ ويستقربون الغاضبين من تخليها عن خطابها الشريعي عندما تلونت بخطاب الإسلام الديمقراطي وأفلحوا في ضم كثير من الغاضبين من قواعد الحزب خاصة بعد قبولها بقانون المصالحة مع بقايا نظام بن علي.

ورغم أن الائتلاف تألف حزبياً من الكثير من الرموز التي لم تنتم إلى النهضة في وقت سابق، فقد وصم بأنه يد النهضة الخفية التي تضرب بها خصومها دون حمل كلفة ذلك، وقد طرح الحزب أفكارًا مختلفة نسبيًا وتقدم بقوانين عارضتها النهضة وكسرت حماس الائتلاف في البرلمان، فأفقدته الكثير من حماسه الشبابي، من ذلك مشروع قانون تجريم الاحتلال وقانون تحرير الإعلام وكذلك الموقف من النقابة حيث تعمل النهضة على مهادنة النقابة بينما يصعد الائتلاف ضدها ويعمل على محاسبتها.

ويمكن القول إن الائتلاف هو التآليف السياسي الوحيد بعناصر إسلامية سابقة الذي أفلح في بناء كيان سياسي خارج النهضة، لكنه لا يزال يحبو ولا نتبين تأثير الانقلاب عليه في قادم الأيام، فالتحليل تذهب في اتجاهين مختلفين: بين قائل إن الانقلاب إذ يستهدف الائتلاف ويدخر النهضة يزيد من شعبيته، وقائل إن الاعتدال النهضوي في هذه المرحلة وميله إلى عدم المصادمة سيزيد من منسوب العقلانية السياسية بما يحرم "الخطاب المتطرف" من قاعدة معتدلة.

لكن وباختصار كل محاولات التأسيس من خارج النهضة اتجهت إلى الاستقطاب من داخل جمهور النهضة ولم تعمل على استقطاب جمهور آخر من خارجها بما جعلها كلها تتحرك في مكان واحد ضمن جمهور متشابه (لم نتحدث هنا عن حزب التحرير الذي اشتغل كثيرًا على نفس الجمهور وفشل في اختراقه)، فبقيت كلها في الدائرة الإسلامية الضيقة، وهنا يطرح السؤال عن الجمهور المقصود من قائمة المئة إذا ذهبت إلى تأسيس حزبها؟

هل المطلوب حزب جديد أم أطروحة جديدة؟

قبل خروج المئة خرجت شخصية اعتبارية أخرى هي عبد الحميد الجلاصي رجل التنظيم كما يوصف، وقد تكلم كثيرًا في الأخطاء القيادية للغنوشي ولم يزد على ذلك طرحًا سياسيًا أو فكريًا مختلفًا بما سهل حشره في الغاضبين غير المؤسسين وهو لا يزال فردًا دون سرب ظاهر وحتى الآن لم يتكلم من المئة صوت بطرح فكري مختلف فكريًا وسياسيًا ليتمكن للمتابع القول إن هناك أطروحة أخرى تتبلور، بل نعتقد أن المسارعة إلى الانتظام السياسي قبل بناء فكرة مختلفة عن النهضة هو عمل انتخابي يبني على أن الانقلاب سيفكك الحزب الأم وبالتالي فإن أيتامه سيبحثون عن ملجأ سياسي آخر، وهي فرصة للفوز به قبل أن يستقطبه طرف ثالث أو يتلاشى في الطريق.

الرمزان البارزان في مجموعة المئة (عبد اللطيف المكي الطبيب ووزير الصحة السابق وسمير ديلو المحامي والوزير السابق والنائب حاليًا) تكلموا - ولم يتكلم غيرهما - في الأخطاء القيادية للغنوشي وهيمنتها على الحزب (حزب العائلة)، وهما واقفان عند ذلك بعد، بما يجعل حزبهما المزمع تأسيسه حزب

غاضبين، هذا إذا أفلحنا في استقطاب من لم يستقل من الحزب وفيهم كثير انتقد الغنوشي واختياراته من داخل الحزب نقدًا شديدًا، والأسئلة التي ننتظر إجاباتها من المكي وديلو قبل البقية هي:

أين سيكون موقع الحزب؟ هل سيكون على يسار النهضة ويتجه بأنصاره إلى موقع وسط أو يسار وسط فإن فعل فعلى أي أصول أو قواعد فكرية سيؤسس عمله؟ هل سيتجه يمين النهضة وهي المنطقة التي سبق إليها الائتلاف؟ هل سيستعيد أطروحات الإسلاميين التقدميين؟ هل سيخرج الحزب من الطرح الإسلامي نهائيًا ويؤسس على طرح مختلف؟ وفي هذه الحالة من سيكون أنصاره إذا كان للطرح اليساري أنصاره المالكون وللطرح الليبرالي أنصاره الثابتون؟ هل سيكتفون بحزب إسلامي صغير آخر يشتغل بجانب النهضة ويتحالف معها دون الخضوع إلى إملاءات الغنوشي التي تبدو إلى حد الآن كسبب وحيد للاستقالة؟

الرمزان البارزان في مجموعة المئة تكلمنا في الأخطاء القيادية للغنوشي وهيمنتها على الحزب، وهما واقفان عند ذلك بعد، بما يجعل حزبهما المزمع تأسيسه حزب غاضبين

موضوعيًا لقد اختار المستقيلون توقيتًا سيئًا جدًا للاستقالة من حزبهما الأم، بما وتر علاقاتهم بقواعد الحزب وقد روج عنهم (ولم أعر على دليل جدير بالتصديق) أنهم نسقوا استقالتهم مع أعداء الحزب، وهذا التوقيت حفر أخدودًا عميقًا بينهم وبين بقية الغاضبين الذين يحتمل أن يلتحقوا بهم، (وقد رجعت الفاشية فكرة مفادها أن الاستقالة مبرمجة مع الغنوشي نفسه استعدادًا لاحتمالات حل الحزب لكن سماع نقدهم للغنوشي يجعل هذه الفكرة متهافة).

نعود لنختم بجوهر فكرة البروفيسور أبو يعرب المرزوقي: الخروج من مشروع الإسلام السياسي يقتضي إما تأسيسًا على غير الأطروحة الإسلامية والذهاب فغلاً وقولًا إلى البناء على أطروحة مختلفة وإما البقاء داخل الطرح الإسلامي وتوسيعه بنقده من الداخل وهي التي يسميها الثعالبية (نسبة إلى عبد العزيز الثعالبي مؤسس الحزب الحر الدستوري العام 1920).

وأعتقد في ضوء متابعة لصيقة لما يطرحه المئة أن مصيرهم سيكون أقرب إلى مصير حزب القوماني وحزب الشعبي، مع احتمال حدوث أمر جلل آخر لا نستبعده في المدى المنظور ونبينه على تخطيط الانقلاب إذا مس المنقلب وهو يبحث عن مخارج من أزمته سلامة حزب النهضة ودخل معه معركة استثنائية فيجد المئة أنفسهم في وضع من يأكل لحم أخيه ميتا، وحينها تسقط عنهم كل شرعية تأسيس جديد ولو استبقوا الوقائع.

نختصر إن تأسيسًا جديدًا ليس جريمة تدان، لكن إعادة إنتاج أطروحات سابقة أنتجت سياسات قاصرة ليس ابتكارًا عبقريًا يمكن أن يلي حاجة الباحثين عن مواقع أقدم ثابتة في عالم متحرك.